كلمة ضيف شرف المؤتمر

الأستاذ الدكتور/ سعيد توفيق

أستاذ الفلسفة المعاصرة وفلسفة الجمال بقسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة القاهرة- والأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة (سابقاً)- والحائز على جائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠١٩

الأستاذة الدكتورة عميدة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

حضرات الأساتذة والزملاء الكرام

أسعد الله صباحكم بكل خير

أود أولًا أن أتوجه بالشكر إلى الأساتذة القائمين على المؤتمر على الدعوة الكريمة للمشاركة بكلمة افتتاحية قصيرة: الأستاذ الدكتور ماهر عبد القادر محمد المشرف العام على المؤتمر، والأستاذ الدكتور حربي عطيتو مقرر المؤتمر، والأستاذة الدكتورة صفاء جعفر رئيسة هذا المؤتمر التي أقدر جهودها المضنية في تحرير المادة العلمية للمؤتمر السابق وفي الإعداد لهذا المؤتمر.

موضوع هذا المؤتمر بالغ العمق، موغل في التخصص؛ ولذلك نجده حاضرًا عبر العصور الفلسفية، مثلما نجده حاضرًا عبر فروع الفلسفة بما في ذلك المنطق، وخاصة فيما يُعرف بالمغالطات المنطقية. تشهد بذلك الأوراق البحثية المقدمة في هذا المؤتمر على تنوعها. ومع ذلك، فإن هذا الموضوع، على عمقه وتخصصه، إلا أنه وثيق الصلة بالحياة؛ فهو متأصل في طبيعة الحياة ذاتها، وفي الوجود في مجمله. فالوهم متأصل في قلب الحقيقة في نوع من المفارقة. هذا ما أطلعنا عليه فلاسفة عظام من أمثال: هيراقليطس ونيتشه وهايدجر. فها هو ذا هيراقليطس يقول لنا قولته الشهيرة: "أنت لا تستطيع أن تنزل النهر مرتين؛ لأن مياهًا جديدة سوف تغمرك باستمرار". والمعنى أن النهر الذي يبدو هو النهر، وليس هو النهر في الوقت ذاته. وها هو ذا نيتشه يبين لنا أن الحقائق التي طالما آمنا بها، ليست سوى أوهام أو أصنام ينبغي تحطيمها. وها هو ذا هايدجر يؤكد دائمًا أن الحقيقة تبقى دائمًا متخفية أو محتجبة، وهي لا تبدأ في التكشف إلا عندما تهتز الأرض الصُلبة التي نقف عليها، أي عندما تهتز قناعاتنا ومواقفنا الإيقانية التي نؤمن بها، أو

نعتقد فيها كما لو كانت حقائقَ راسخة. هكذا أبان لنا الفلاسفة المفارقة الكامنة في قلب تصورنا عن الحقيقة.

وبوسع كل متخصص أن يتحدث عن أشكال المفارقات عبر تاريخ الفكر الفلسفي. ومع ذلك، فإني أرى أن مكمن المفارقة يكمن دائمًا في اللغة، سواء كنا نتحدث هنا عن لغة النص الفلسفي أو لغة النص الأدبي. وأقصد باللغة هنا اللغة التي تقول شيئًا وتقصد أشياءَ أخرى، واللغة التي تلمح ولا تصرح أبدًا مثلما كانت لغة كهنة معبد دلفي، كما أنبأنا هيراقليطس. لم تكن هذه هي لغة نص هيراقليطس فحسب، بل نجدها أيضًا لدى القديس أوغسطين، ولدى شوبنهاور، ونيتشه، وهايدجر، ولدى كثير من الفلاسفة الوجوديين. ولهذا يمكن القول بأن لغة النص الفلسفي لدى هؤلاء الفلاسفة الكبار تنأى عن لغة العلم المحددة، والتي لا تحتمل أية مفارقات في المعنى، وتميل إلى اللغة الإيحائية غير المباشرة التي نجدها في لغة الأدب. ومن هنا يمكن أن نفهم معنى قول دريدا: "إن الفلسفة لا مهرب لها من الجمالي".

غير أن لغة النص الأدبي تظل هي النموذج الذي يستحضر المفارقة، ليس فقط في اللغة ذاتها، وإنما أيضًا في تأمل طبيعة المفارقة ذاتها. ولهذا سوف أختم كلامي هنا بالنص التالي للغيطاني الذي يتجسد فيه معنى المفارقة بوضوح، لغةً وموضوعًا، وهو نص يصف فيه الغيطاني تأهب القطار للحركة، وذلك في تدوينة "دنا فتدلى" الذي خصصه لتجربة القطار التي يمكن أن نعايشها في شتى تفاصيلها، حتى في دلالة حركية القطار ذاتها:

> ***"يبدأ تراجع الواقفين،الأعمدة، المظلات الساترة،الباعة،الحمالين،المفتشين، المخبرين،الحراس، الجدران، تبدأ مفارقة العجلات للقضبان وديمومة التصاقها بها أيضًا، وتلك صلة من الأمور الدقيقة التي تشغلني وتراودني في خلواتي حتى الآن، ذلك أنها تحتوي على إجابات جمة عن تساؤلات شتى، لكنني لا أقدر على الإمساك بها وتصنيفها وتحديدها ، ذلك أن العجلات ملاصقة للقضبان، مصممة بحيث لا تفلت، تلزمها، تتبعها أينما اتجهت، غير أن الغرض لا يتم ولا يكتمل إلا بالمفارقة، وبقدر سرعة مفارقة العجلات للقضبان يكون الإتقان وسرعة الانتقال، لكن .. لننتبه ، فتلك الصلة مشروطة، إذ لو جرى انفصال تام يقع المحظور، ليتم القطار رحلته لابد أن تمتزج حركة العجلات بالقضبان، عجلات مرسلة، مدفوعة بالطاقة، نافثة***

للحرارة، قضبان متمددة، متلقية ، ثمة فاعل ومفعول لاجتياز المكان وقطع الوقت، لابد من اكتمال الضدين واتحادهما لتكون حركة" [1].

إن هذا النص البديع يجسد ذلك الشعور بالتناقض في الوجود ذاته، ويصفه كما يتبدى في تفاصيل خبراتنا بالأشياء الصغيرة، من قبيل خبرتنا بحركية القطار... إنها تجربة المفارقة الحقيقية: مفارقة القريب والبعيد؛ فالقريب منا لا نراه بوضوح، وإنما نراه بوضوح حينما يبعد أو يتباعد عنا، كذلك حياتنا في مجملها، فالأشياء تفر من أيدينا باستمرار عبر الزمن، حتى إننا لا نكاد نلحظها. ذلك هو المعنى العميق الموحى في وصف الغيطاني للتفاصيل الصغيرة لحركية القطار: القطار الذي يمرق في المكان (كما لو كان يمثل الزمان أو حياتنا التي تمرق عبر الأشياء والأمكنة).. المشاهد القريبة من الأشياء والأشخاص التي تضطرب وتتماوه صورتها علينا إلى أن تتباعد فتصبح مرئية،ـ بل إن هذا التناقض أو التضاد المتأصل يتبدى حتى في علاقة عجلات القطار بالقضبان: فحركية عجلات القطار تطوي القضبان الممتدة في المكان، دون أن تفارقها، وكأنها حركة الحياة أو الزمان ذاته الذي يطوي الأمكنة والمشاهد والأشخاص، ولكنه لا يفارقها أبدًا.

أكرر خالص شكري للأساتذة القائمين على هذا المؤتمر، متمنيًا التوفيق لجهود كل الزملاء المشاركين فيه.

(١) جمال الغيطاني ***دنا فتدلى*** (القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٩٩٨)، ص. ١٣-١٤.